التخيُّلات والخيالات واسبابها

النبذة الاولى في التخيلات والخيالات

بعث الينا بعض القراء يطلب مقالةً في ما يتراءى لبعض الناس في اليقظة من الخيالات وما يسمعونهُ من الاصوات بلا صائت ويذوقونهُ من الطعوم بلا مذوق ونحو ذلك فاقتطفنا هذه المقالة اجابة لطلبهم

نريد بالتخيلات ما يتخيَّلهُ الانسان في المحسوسات الموجودة على خلاف ما هو فيها كأن يتخيَّل الجسم الصغير كبيرًا او الكبير صغيرًا والبارد حارًّا او الحارّ باردًا ونحو ذلك مما يحصل عن خللٍ في الحواس . ونريد بالخيالات ما يتراءى للانسان في اليقظة من الناس والوحوش وغيرها وما يتخيَّل لهم من المحسوسات التي لا وجود لها وانما توهموا وجودها لعلَّة في الدماغ كما سيتضح مما يأتي

اما التخيلات فتخيلات البصر منها تكون غالبًا بتوهم حجم الاشياء على خلاف ما هو فيظنها الانسان اكبر مما هي او اصغر . روى الدكتور هَمُند ان صبيةً اجهدت عقلها بالدرس فصارت ترى راس الانسان كبيرًا جدًّا كانهُ كرةٌ طول قطرها بضع اقدام وترى الاطفال كبارًا كالجبابرة وكفوف الناس كبيرة كالمذاري ولكنها لم تكن تخيل شيئًا في شخصها على خلاف ما هو فكانت ترى يديها ورجليها وسائر اعضاء جسدها بحجمها المعتاد وكانت تعلم انها تخطئ ادراك حجم الاشياء ولذلك لم يكن الخلل في آلة الادراك فيها بل في آلة الشعور . وروى طبيب آخر ان فتاة اصيبت بالصرع فصارت ترى الذبابة كبيرة كفرخ الدجاج . وروى آخر ان رجلاً كان يرى الناس صغارًا كالنمل وآخر يراهم كبارًا كالجبابرة * وتخيلات السمع اقل من تخيلات البصر حدوثًا . روى الدكتور هَمُند المذكور انفًا ان رجلاً كان يتخيل تلك الساعة الفاظًا مفهومة فاذا كان على الطعام وسمعها تصوت بحانبهِ توهم انها تكلمهُ كلامًا اكثرهُ امرٌ ونهيٌ كأن تقول لهُ "كُل طعامك" "ولا تشرب خمرًا" ونحو ذلك واتفق انهُ سدَّ اذنهُ اليمنى ذات يوم فبطل تخيلهُ هذا ثم فتحها وسدَّ اليسرى فعاد التخيل وذلك دليل على ان مركز السمع الايمن كان مصابًا والمركز الايسر سالمًا . وبقي الرجل زمانًا طويلاً يعلم انهُ يتخيل الكلام في الاصوات تخيلاً لعلة فيهِ ثم غلب الوهم عليهِ وتقرَّر في عقلهِ ان تلك الاصوات ارواح مرشدة تامرهُ بالواجب وتنهاهُ عن المنكر فوضع في كل غرفةٍ من غرف دارهِ ساعةً وكان لا يخالف لها امرًا في كل ما يتخيل انها تامرهُ بهِ

وتخيلات اللمس تكون غالبًا بتوهم حرارة الاجسام وثقلها وحركاتها واشكال سطوحها على خلاف ما هي عليهِ . فيتوهم المصاب بها ان الجسم البارد حار والحار بارد كما رُوي عن بعضهم انهُ

كان يأبى الدنو من الاجسام الباردة خوف الاحتراق توهمًا انها حارّة وعن آخر كان لا يمتنع عن امساك الاجسام الحارّة توهمًا انها باردة . او يتوهم ان الجسم الساكن متحرّك كرجل كان يشعر بان كل جسم يجلس عليه يزحل من تحته مع انه ثابت لا حراك به . او يتوهم انه ثقيل جدًّا وهو خفيف او خفيف جدًّا وهو ثقيل او انه قد طال جدًّا او قصر وهو لم يزل على ما كان

وتخيلات الذوق والشم تكون غالبًا في الذين بهم خلل في بعض القوى وتندر في الذين لا خلل كذلك فيهم . فقد قال الدكتور همند ان امرأة كانت تشعر بطعم القنّيط في كل ما يدخل فمها واخرى بطعم الجبن واخرى بطعم الاجاص

واما الخيالات فقد قلنا انها تختلف عن التخيلات بكونها وهمية محضًا لا وجود لها في الخارج وهي مقيدة في اصطلاح الاطباء بحاسّة البصر وقد توسّعنا فيها هنا فاطلقناها على سائر الحواس من باب تسمية الكل باسم البعض

فمن الامثلة على خيالات البصر ما رُوي عن بائع كتب جرماني انهُ نفاقت عليهِ الخطوب وازعجتهُ الهواجس والهموم عشرة اشهر متوالية وكان من عادتهِ ان يُفصد فاهمل الفصد اشتغالاً بهمومهِ فاصبح ذات يوم واذا شبح ميت على بعد نحو عشر خطوات منهُ فاحدق اليهِ فبقي امامهُ هنيهة من الزمان ثم اختفى ثم عاودهُ بعد الظهر فقام من غرفتهِ ودخل اخرى فتبعهُ وهو يظهر تارةً ويختفي اخرى . ثم ظهرت لهُ اشباح كثيرة مختلفة عن الاوّل . ولما جاء الغد اختفى شبح الميت وسائر الاشباح التي ظهرت لهُ بالامس وظهرت خيالات كثيرة بعضها يشبه معارفهُ واكثرها غير معروف عندهُ وكان اولاً يراهم ولا يسمع لهم صوتًا ثم صار يسمعهم يتكلمون بعد اربعة اسابيع فاستشار طبيبًا فاشار بالعلق على ذراعيهِ فلما فرغ من العلق شفي في الحال . ومن الامثلة على خيالات البصر ما ذكرهُ الدكتور كرنيلوس فان ديك في مبادئ الطب البشري عن العلّامة باسكال الشهير وهو انهُ تخيل هوّة عميقة عن يسارهِ فوضع كرسيًّا عن يسارهِ لئلاّ يقع فيها

وخيالات السمع اكثر من خيالات البصر وسائر الحواس الخاصّة وهي تفضي الى الجنون اكثر مما سواها على ما قالهُ همند فينحر الناس بسببها اكثر مما ينحرون بسبب باقي الحواس كلها معًا لكثرة ما يقلقهم من الهواجس التي توسوس اليهم أن القوا بانفسكم في الماء او اضربوا انفسكم بالسكاكين في مقتل من المقاتل او نحو ذلك من الوساوس ولا تزال تردد اصواتها الموهومة على مسامعهم حتى تغلّب عليهم فينقادوا الى امرها صاغرين مهما كان اقتدارهم على انفسهم عظيمًا . وهذه الهواجس قد تكون لفظة او لفظتين وقد تكون جملة او جملاً متعدّدة . ذكر همند ان امرأة كانت تسمع صوتًا ينشدها اشعارًا مبتكرة او يتلو لها مقالات منثورة مبتكرة ايضًا فتكتبها احيانًا وتاتي بها

اليه . ولم تطل عليها هذه الحال حتى توهمت انها ارتكبت الخطية التي لا تغفر فحاولت قتل نفسها مرتين فُمنعت منه ونُقلت الى المارستان حيث زال منها وهمها بارتكاب الخطية التي لا تغفر وصارت تزعم انها بلا احشاء. وخيالات البصر والسمع قد تحدث والعينان مغمضتان او عمياوان والاذنان مسدودتان او صمّاوان فقد رُوي ان بعض العمي يتخيّلون كالمبصرين وبعض الصم الخرس يسمعون اصواتاً كالذين يسمعون. ويقال ان يتوفن اشهر من نظم الانغام الحانًا بين الافرنج واعظمهم طرش في اخر ايامه ولكنه كان يسمع اصوات الحانه كانها تعزف بايادي امهر العازفين على احسن المعازف. وقد تصاب عين واحدة او اذن واحدة بالخيالات وتبقى الثانية سالمة

وخيالات الشم اندر من خيالات البصر والسمع . ومن الامثلة عليها ان بعضهم كان يشم رائحة دهان التربنتينا على الدوام وآخر رائحة البنّ وآخر رائحة الرمم المشرحة المتعفنة وهو طيب وقد بعث بعضهم يسال المتنطف عن سبب شمه للرائحة الكريهة حيث لا رائحة وهو من هذا النوع ومعلوم ان بعض نوب الصرع يسبقها شم رائحة منتنة. وخيالات الذوق اندر ما سواها وقد يتعذّر الحكم عليها لان اختلال المعدة او الامعاء كثيرًا ما يغيّر طعم الفم بتاثيره في اللعاب . وقد يتغير طعم الفم عند تنبه المقل وتهيّج قرواه فان رجلاً كان يشعر بالمرارة كلما افاض في الحديث مُحبسًا

وخيالات اللمس كثيرة جدًّا ولكنها تلتبس غالبًا بخيالات اللمس فلا يُفرّق بينها . ومن الامثلة على ذلك ما رواهُ الدكتور كرنيليوس فان دبك من ان رجلاً كان يتوهّم ان فمهُ ملآن قطع زجاج وامرأة اصابتها اوجاع بطنية فزعمت ان في بطنها فرقة من العسكر وكانت تخيّل انهم يتقاتلون عند اشتداد الوجع ثم فحوا رمتها بعد موتها فوجدوا احشاءها ملتصقة بعضها ببعض

ومن الناس من يستطيع احضار الخيالات واخفاءها بالارادة وكثيرًا ما يعود ذلك عليهم وبالاً لانهم اذا زاولوهُ المرة بعد المرة تمكّن فيهم واستعصى فكدّر صفو حياتهم . ومن الامثلة على ذلك ما ذكرناهُ في الجزء الماضي من المتنطف تحت عنوان "غرائب التخيل" ونزيد عليه الآن ان امرأة كانت تحوّل كل افكارها الى شخص واحد فاصبحت احضار صورته امامها ثم تخيل مخاطبة كانهُ في الحضرة وهي عالمة انهُ غائب وانها تخاطب صورتهُ. واتفق انها فيما كانت تتفكر يومًا بامها رفعت عينيها واذا امها واقفة بها كما كانت تتصوّرها ثم غابت بعد قليل. ووجدت بعد ذلك انها تستطيع احضار خيال امها واخفاءهُ كلما شاءت ثم صارت تستحضر خيال اي من شاءت بمجرد تحويل الفكر اليه وجمعهِ عليه . وكانت تصدّق بحضور الارواح المعروف عند الافرنج بالسبرتزم فجعلت تصدّق ان الخيالات التي تظهر لها ارواح تتجلّى عليها . وتمكّنت فيها عادة استحضار الخيالات حتى لم تعد تستطيع اخفاءها عنها فتسلّطت عليها خيالات السمع والبصر

النبذة الثانية في اسباب التخيلات والخيالات

اما اسبابها فهي اختلال ما في الدم الدائر في الدماغ وهذا الاختلال اما في كمية الدم او كيفيته او كليهما معًا لانهُ اذا احتقن الدم في الدماغ لكثرة توارده اليهِ او لصعوبة جريهِ منهُ حدثت التخيلات والخيالات. وشاهد ذلك ان رجلاً كانت تخيل لهُ خيالات البصر مجرَّد احناء رأسهِ الى الامام قليلاً وتزول من امامهِ برفع رأسهِ. واحناء الراس موافق لاحتقان الدم في الدماغ ورفعهُ موافق لجريهِ منهُ فلذلك يكون الخيال حاصلاً من الاحتقان اذ ليس ثمَّة سبب آخر يصحُّ ان ينسب اليهِ. وايضًا ان رجلاً كان يكتب على مكتبة امامهُ فرفع مقلتيهِ ولم يحرك راسهُ فرأى خيال عجوز مترديةٍ برداءٍ اسود وعلى رأسها بلثام اسود ايضًا. فجلس ليتكئ على الكرسي فرآها تغيب عن عينيهِ شيئًا فشيئًا ثم عاد فجلس كما جلس اولاً ورفع مقلتيهِ فرآها ثانيةً وعاد فاتكأ على الكرسي فرآها تغيب. واعاد ذلك مرارًا عديدة فكان الخيال يظهر لهُ ويغيب عنهُ. فاستشار الطبيب محمَّدًا فلما فحصهُ اذا طوقهُ عريض سميك ولذلك كان اذا احنى رأسهُ ليكتب يضغط الطوق اوردة العنق فيعيق الدم عن الرجوع فيها من الراس الى البدن فيحتقن في الراس ومن الحالة في الدماغ فوصف لهُ ابدال الطوق بآخر انسب منهُ فابدلهُ بطوق لا يعيق الدم عن الرجوع من الراس والدماغ فلم يعد يرى الخيال. وايضًا ان رجلاً اضطجع على فراشهِ فرأى شيخًا واقفًا بجانبهِ كاشرًا عن اسنانهِ مشيرًا اليهِ. فاغتمَّ ونهض حالاً لمقابلتهِ فلم يرَ احدًا فعاد واضطجع فاذا الشيخ بجانبهِ على ما رآهُ اولاً فنهض من الفراش فغاب عنهُ. فحاول ان ينام تلك الليلة فطار النوم من عينيهِ واستمرَّ الخيال يظهر لهُ اسابيع عديدة. وتعليل ذلك واضح لانهُ اذا استلقى الانسان تسهَّل توارد الدم الى دماغهِ وتعسَّر جريهُ منهُ فيحتقن فيظهر الخيال. ثم اذا نهض بعد الاستلقاء تسهَّل جري الدم من الدماغ الى البدن فيزول الخيال. وحدوث الخيالات عن احتقان الدم في الدماغ امرٌ مشهور حتى قصرها البعض عليهِ فجعلهُ سببها الوحيد. غير ان ذلك لا يخلو من التطرُّف فقد اثبت غيرهُ انها تحدث من قلة الدم في الدماغ ايضًا. وشاهد ذلك ان الذين يتضوَّرون جوعًا او يجهدون انفسهم حتى يعيوا اعياءً شديدًا تكثر الخيالات فيهم. وايضًا ان صبيَّة توالى عليها الصرع نوبًا متعدِّدة امام الدكتور محمَّد فضغط الشريانين السباتيين في عنقها ضغطًا شديدًا قصد توقيف النوب. فاصفرَّ وجهها وصرخت بصوتٍ عالٍ وهي متجهة واشارت الى شيءٍ تراهُ قريبًا منها فخفف محمَّد الضغط فقالت اني رأيت زنجيًّا هائلاً هاجمًا عليَّ بنبوتٍ في يدهِ وقد اختفى عند تخفيف الضغط عن عنقي. فاقنعها بانهُ خيال واعاد الضغط معتدلاً فقالت اني اراهُ غير واضح فزادهُ فقالت اني اراهُ واضحًا. فجعل يزيد الضغط ويخففهُ فكانت ترى الخيال واضحًا وخفيًّا. فثبت بذلك ان قلة

الدم تحدث الخيالات ايضاً

وقد حاولوا ايضاح الكيفية التي تحصل بها التخيلات والخيالات من كثرة الدم في الدماغ او قلته فيه منذ زمان طويل فلم يجمعوا على ايضاح حتى الآن . والظاهر ان راي الفيسيولوجي لويس مرجَّح على غيره وملخص هذا الراي ان السريرين البصريين (وهما كتلتان عظيمتان مستطيلتان في باطن الخ) هما مجمع كل التاثيرات التي تؤثرها الاشياء الخارجية في الاعصاب فلا تشعر المشاعر بشيء الاَّ ادَّت تاثير ذلك الشيء اليها ومتى اجتمعت التاثيرات فيها انفذاها وادَّياها الى الجوهر القشري السنجابي الذي يشاهد على ظاهر الدماغ فتحصل هناك الصور العقلية المطابقة لتلك التاثيرات المادية نتيجة لتلف الافكار منها

وعليه اذا اعتلَّ سرير من السريرين البصريين او اعتلاَّ كلاهما معاً وقع الخلل في التاثيرات التي تؤديها الحواس اليهما لما فيهما من الاعتلال فترسم صور الاشياء في الذهن على خلاف ما هي في الخارج كأن ترسم كبيرة والاشياء صغيرة او صغيرة والاشياء كبيرة وقس عليه . ثم ان الجوهر القشري السنجابي اذا كان سالماً ادرك العقل ان الصور مختلفة عن الحقائق واذا كان عليلاً صدَّق العقل ان الاشياء كما صوَّرها له السريران البصريان غير مدرك اختلافها عن الحقائق لما به من الاعتلال . وهذا في راي لويس وغيره تعليل التخيلات وتكذيب العقل وتصديقه لها

واذا حصل في السريرين البصريين لاعتلالها تاثيرٌ يشبه التاثير الذي تؤديه اليهما الحواس ولم يكن مرسلاً من الحواس فذلك هو الخيال والعقل يكذبه او يصدقه حسب كونه سالماً او معتلاً كما تقدَّم في التخيل

اما سبب اعتلال السريرين البصريين فالغالب ان يكون احتقان الدم فيهما ولا سيما في الدرجات الاولى اذا لم يكن اختلال في سائر القوى العاقلة وقد يكون قلة الدم فيهما ايضاً . والخلاصة ان الدم اذا احتقن في الدماغ فكثيراً ما يضرُّ السريرين البصريين فتتسلط التخيلات او الخيالات على صاحبها لاختلال عليها باعتلالها . واذا قلَّ عن الدماغ فقد يضرُّها فتحصل من ذلك ايضاً التخيلات او الخيالات . وهذا ما قالوهُ في ايضاح الكيفية التي بها تحدث التخيلات والخيالات عن احتقان الدم في الدماغ او عن قلته فيه والله تعالى اعلم

لا تعمل ما يسوءك عاجلاً ويهلكك آجلاً * مَنْ ساء خلقهُ ضاق رزقهُ * مَنْ اطاع هواهُ ضل ومن استبدَّ برايه زل * لا سيف كالحق ولا عدل كالصدق * آفة الزعماء ضعف السياسة وآفة العلماء حب الرياسة * من ساءت اخلاقهُ طاب فراقهُ * مهلكة المرء حدَّة طبعه